دراسات فى الفن

دعاؤك ثم غنائى

للأستاذ عزيز أحمد فهمى

— كل سنة وانت طيب

— يا باى ! ومالك تكررينها هكذا كأنما أنت آلة ...

— يا فتاح يا عليم ! وكيف كنت تريدنى أن أقولها لك ؟ أكنت أجثو لك على قدمى وأرفع لك كفى مضمومتين ، وألقيها عليك كما ألقى روميو على جولييت تحية الغرام ساخنة ؟

— لا يا شكسبيرة الزمن ، كنت أريد أن أشعر وأنت تقوليها أنك تريدين حقاً أن أكون طيباً فى كل سنة ...

— كنت تريد منى أنا أن تشعر أنت ... ؟ إذن ، فاسمح لى أن آكل نصيبك من غداء اليوم ، واشبع أنت ...

— لو كنت استطعت أن تشعرينى بالسلامة فى دعائك الأول لكنت استطعت أن تشعرينى بالشبع فى دعواك الثانية !

— عجباً ! تذهب فى الجدل إلى هذه النهاية المضحكة فيسهل عليك أن تقرر إمكان الشبع لإنسان إذا أكل غيره ... ولا تعترف بأنك كنت « تهلوس » ...

— لو كنت أماً لما أنكرت أن الشبع يمكن لإنسان إذا أكل غيره . فالأمهات كثيراً ما يشبعن إذا أكل أبناؤهن . وكثيراً ما يرتوين إذا شرب أبناؤهن . وكثيراً ما يسعدن إذا فرح أبناؤهن . وكثيراً ما يحقق الله على هذا دعاءهن ، إذا دعون لأبنائهن . وفى هذا جعل الله الجنة تحت أقدامهن !

— ما شاء الله . أريد أن أفتك بقضاياك هذه جميعاً لولا أنك تقربها للمرأة أفضالاً قليلاً ما أظفر منك بالاعتراف بواحد منها . ولكن هذا لا يمنعنى من أن أسجل عليك هذا الاعتراف ، وأن أسألك بعد ذلك كيف كنت تريدنى أن أدعو لك ؟

— أتعرفين لماذا كانت صلاة الجماعة خيراً من صلاة الفرد ؟ ولماذا كان للمصلين جماعة إمام يقود الصلاة ؟ ولماذا يفزع من طوائف المتدينين المختلفة جماعات فى الكوارث يصلون يطلبون من الله أن يدرأها ، وفى المباهج يصلون يطلبون من الله أن يباركها ؟

— وما صلة هذه « الفقهنة » بدعاء هو تحية العيد ؟ ...

— الدعاء صلاة لأن الصلاة دعاء . والدعاء قد يكون تحية حقاً ، ولكن ليس على هذا النحو الذى تشتغلينه كما تشتغلين « البرودرى » . أنت ألقيت علىّ تحية العيد كما يلقى الناس هذه التحية ، وهم يلقونها كما يلقون كل تحية أخرى ، تنطق بها أفواههم ونفوسهم مشغولة عما ينطقون ، ولهذا فإن تحياتهم لا أثر لها ولا ثمرة ، فكم دعا ناس لناس أن يفوزوا فخابوا ! وكم دعا ناس لناس أن يسعدوا فابتأسوا ! وكم دعا أيضاً ناس على ناس أن يصيبهم السوء فلم يصبهم إلا الخير ! وكم دعا ناس على ناس أن يهلكوا فنجوا ... وكم وكم من دعوات فارغة !

— وهل فى الدعوات فارغ ومملوء ؟

— الدعوات ككل كلام يقوله الإنسان ، وفيه الفارغ ، وفيه المملوء حقاً ، وفيه المملوء باطلاً ، وفيه المملوء أخلاطاً من الحق والباطل . ولا يبقى من هذا كله عند الله إلا المملوء حقاً . وإن له عند الله الجزاء أثراً واجب التحقق . ألم يقل النبي ، فيما يروى من الأثر : اتقوا دعاء المظلوم ؟ ! أليس فى هذا دليل على أن دعاء المظلوم يتحقق ؟ وأى شىء فى دعاء المظلوم يميزه عما فى غيره من الدعاء إلا أنه مملوء بالحق؟ فإذا كان الامتلاء بالحق هو الذى يضمن للدعاء التحقق فلماذا لا نضمن تحقق الدعاء بالخير إذا امتلأ حقاً؟..

— إن هذه « شطحة كشطحات » المجاذيب !

— أنعم بهم ! واستمعى لى . وافرضى معى أسوأ ما يمكن أن يفرض فى الإنسان من الفروض ، وهو أنه بلحمه وعظمه ودمه وأعصابه شحنة كهربائية حدثت على وجه من الوجوه لا شأن لنا به . وافرضى كذلك الأسوأ من هذا وهو أن عواطف الإنسان ووجداناته ليست إلا حالات كهربائية تعرض لهذه الشحنة المتجسدة إنساناً فى ظروف مختلفة ... وافرضى بعد هذا وجود إنسانين بينهما علاقات ... فكيف تتصورين هذه العلاقات بين هذين الإنسانين اللذين هما شحنتان من الكهرباء ؟

— لا بد أن تكون كـكل علاقة بين شحنتين من الكهرباء . فكيف تكون العلاقة بينهما ؟

— تكون أحياناً برقاً يصحبه رعد. وتكون أحياناً إشعاعات تتعاون على بعث النور فى الظلمات ، وتكون أحياناً صواعق ... وقد تكون على نحو لا أعلمه أنا ويعلمه الدكتور غالى ، وقد تكون على نحو لا أعلمه أنا ولا الدكتور غالى ...

— حسن . فلتتصور إذن هذين الإنسانين وهما شحنتان مما يحدث البرق . فكيف يكونان ؟

— هذان يلتقيان فجأة فيتعانقان ويتبادلان القبل مغرقة ولهاهزيم

— والحالة الثانية ؟

— أما الحالة الثانية فهى التى تستعين فيها شحنة بشحنة أخرى على بعث النور ، أو على تحريك الموتور ، أو على بلوغ مقصد ما ... إنهما من غير شك تتعاونان إذا اتجهتا اتجاهاً واحداً . وهذه هى حالتنا أنت وأنا كما أحب أن تكون . فلو أنك تقصدين معى الهدف الذى أقصد إليه لبلغنا من غير شك أنا وأنت هذا الهدف فى مدة أقصر من المدة التى قد أصل فيها وحدى لأدعوك بعد ذلك إلى جانبى . وأنا لا أطلب منك أن تدفعينى بيديك لأنى لا أتصدى فى هذه الدنيا لعمل أستخدم فيه القوة ، وإنما أريد منك أن تؤمنى بالذى أومن به وأنت تعلمين أنه الله ، وقد قلت لى مرات إنك مؤمنة ، والله قد رسم للحياة حدوداً وأنت تعرفين أنى أخاف كل الخوف من الخروج على هذه الحدود ، فسيرى إلىّ فيها ، والزمينى فى قولك وعملك نكن أنا وأنت شحنة واحدة منطلقة فى الكون فيها قواك وقواى وقوة الحق الأكبر من كل قوة . هو دعاء أريده أن ينبعث من قلبك لا من لسانك . اتجهى به إلى الله وأنت على القرب منى أو على البعد ، فهو لا بد معينى لأنه من دعائى ولأنه إلى غايتى ... وأنا لا بد أن أشعر به كما يشعر الأب بدعاء أبنائه إلى جانبه وإن لم يصوغوه دعاء ... ألا يكافح الأب فى الدنيا من أجل أبنائه أكثر مما يكافح من أجل نفسه ... أو تحسبين هذا الكفاح والقدرة عليه إلا من دعوات الأبناء ... ؟

— قد يدعو الآباء إلى أبنائهم ، ولكن قليلاً ما يدعو الأبناء إلى آبائهم ...

— عندما يأكل الإنسان قليلاً ما يقول : إنى آكل ، وعندما ينام فإنه لا يقول إنى أنام ، والأبناء يدعون لآبائهم ولا يقولون إنا ندعو ، وهم جديرون بهذا الدعاء وهو جدير بهم لأن أباهم هو عائلهم ولأنهم يأكلون من فيض يديه . قد لا يعرف الأبناء شيئاً من هذا كله ، ولكن هذا هو الواقع ، والدليل عليه أن الآباء يجاهدون الدنيا أكثر من غيرهم ، ويقوون عليها أكثر من غيرهم ، ويصبرون على مصاعبها أكثر من غيرهم ... وإن هذا لا يحدث إلا لأن دعوات الأبناء صادقة . وقد كان القدماء يستكثرون من النسل ليستكثروا من الرزق ، لأنهم كانوا أقرب إلى الطبيعة منا ، وكان الواحد منهم إذا رزق مولوداً جديداً أحس بأنه رزق قوة جديدة إلى جانب قوته ، وكان الواحد منهم إذا شاخ وضعفت شحنته الكهربائية ارتكن على أبنائه يمدهم بالدعوات الصالحات

— وهل كانت هذه الدعوات تفيد ... وعلى الخصوص إذا اعتبرنا الشيخ شحنة كهربائية ضعيفة ؟

— ما من شك فى أنها كانت تفيد ، فالشيخ كان قبل ذلك قد صقل أبناءه ، وقد علمهم طريق الرشاد ، ونكبهم طريق البغى ، ودلهم على موطن السعادة ، ودلهم على موطن الشقاء ، فدعاؤه لابنه بالسلامة إنما هو تذكير له بطريقها وتوجيه له إليه ، زيدى على ذلك أن شحنة الشيخ الكهربائية إذا كانت قد ضعفت فى مظهرها البدنى فإنها تقوى فى باطنها المعنوى ، وإذا كان الفلاسفة يعترفون للشيخوخة بالحكمة فإننا لا نستطيع أن ننكر عليهم الصفاء والنفاذ إلى الحقائق ، فهم يرتدون إلى الحياة كالأطفال طهارة ونقاء ما داموا قد قضوا حياتهم على الحق ، ولكنهم يختلفون عن الأطفال فى شىء وهو أنهم اجتازوا الشطر الأكبر من هذه الحياة فوقفوا على سرها

— وما سر الحياة ؟

— انتظرينى حتى أشيخ فأعلمه ، أو فاسألى شيخاً ممن يعلمون ... أو فانظرى إلى شيخ من الطيبين كيف يعيش واعلمى أنه يستغل هذا السر ويعيش عليه

— وأين أجد هذا الشيخ الطيب ؟

— تجدينه فى الريف ، وتجدينه فى الصحراء ، وتجدينه فى كل مكان لم تنطبق عليه الحضارة ببرائنها وغالبها ، تجدينه

يأكل ويشرب وينام ، ويعاشر الأطفال ، ويدعو إلى الناس ويتلقى من الناس الدعوات ... ويصلى لربه ويطلب من الله أن يصلى عليه

— ولماذا يعاشر الشيوخ الأطفال ؟

— لأن الشيوخ والأطفال متفقون على معنى واحد للحياة والناس فيما بين الطفولة والشيخوخة يبحثون للحياة عن معانى أخرى .

— وما معنى الحياة عند الشيوخ والأطفال ؟

— هو الاستغراق التام فيها ، والاستمتاع التام بما فيها

— وعلام تقوم العشرة بين الشيوخ والأطفال ؟

— على هذا ، ومظهر هذه العشرة الفنون . فالشيخ يجمع حوله الأطفال ويقص عليهم القصص ، والقصص فن ، ويغنى لهم ويغنون معه والغناء فن ، وقد يستخف الشيخ مع الأطفال فيرقص والرقص فن ، وقد يمثل لهم المركب ويركبونه والتمثيل فن ... فهو إمامهم فى كل فن ، وهم يتبعونه لأنهم يشعرون به يحب هذه الأفاعيل أكثر مما يحب غيرها ، ولأنهم هم أنفسهم يحبونها . فهم سعداء وهو سعيد ...

— وكل من هو مثلهم سعيد ؟ أليس كذلك ؟

— من غير شك

— إذن فالسعادة عندك أن تنقلب الدنيا إلى مسرح لا شىء فيه إلا الغناء والرقص والشعر وما إلى ذلك من اللغو !

— كانت الإنسانية فى طفولتها هكذا كما تقولين مسرحاً لا شىء فيه إلا الغناء والرقص والشعر وما إلى ذلك من السعادة الحق ، وهى اليوم كادت أن تصل إلى شيخوختها فترتد بعد ذلك إلى هذا الذى ترينه لغواً . وآية ذلك أن الناس اليوم متضجرون من الحياة ، وأن حوادث الانتحار تكاثرت بينما القدماء لم يكونوا يعرفون الانتحار لأن أحداً منهم لم يكره الدنيا كراهية تحمله على الاقتناع بوجوب مغادرتها

— ألا يمكن أن تكون سعادة إلا فى هذا الفن أو هذا الهوس ... أنست ترى فى العلم سعادة ؟

— وأى شىء حقق العلم للانسان أكثر مما حقق الحس للحيوان ...؟ اللهم إلا أن هذا العلم عطل عند الناس الإحساس ، فكسبوا شيئاً وخسروا شيئاً ، وكان حقهم أن يكسبوا الاثنين . وسيكسبون الاثنين فى اليوم الذى يقنعون فيه من العلم بلذة العلم ولا يسخرونه فيما لم يجعل العلم له ...

— ولماذا تريد أن تحرم عليهم الإفادة من العلم إذا كانت هذه الإفادة ممكنة ؟ ...

— هى ممكنة ، أنا لا أنكر ذلك ، ولكنها ضارة ... إنها كالدغدغة إذا قصد بها التفريح ، بينما التفريح لا يكون إلا من عوامل نفسية ... إن الضحك المنبعث من الدغدغة ليس ضحكا — وإنما هو رعشات عصبية

— وأنت تريد النكتة الطبيعية لتضحك منها .

— لست أدرى إذا كانت النكتة الطبيعية تضحك أم تبكى ولكنى على أى حال أطلب من الله أن يقينى الغم وإياك .

— آمين ...

— أنظرى ، إنك نطقت « آمين » هذه بصدق ، ولعل ذلك لأنى شملتك بدعائى ... إنها أنانية منك وحب لذاتك ولكنه على أى حال صدق ، والصدق خير من الفراغ ، والفراغ خير من الكذب ... والآن هات منك دعاء صالحاً ، ثم انطلق معى نغنى — كالأطفال والشيوخ ...

عزيز أحمد فهمى

صدر كتاب :

وحى الرسالة

فصول فى الأدب والفن والسياسة والاجتماع

بقلم

احمد حسن الزيات

وهو يقع فى زهاء خمسمائة صفحة من القطع المتوسط

وثمنه ٢٥ قرشا

ويطلب من مجلة الرسالة ومن جميع المكاتب الشهيرة